التمثيل التاريخي في رواية اللاّز للطاهر وطار

الباحث شفيـق بوطـرفة، جامعة عباس لغرور– خنشلة - الجزائر

تمهيـد:

يعدّ التاريخ مرجعا ومادة أولية للكثير من الخطابات الأدبية التي مزجت بين الإبداع والتاريخ، وقد استدعى الروائيون العرب التاريخ في رواياتهم حيث امتزجت بالكثير من الحوادث والمحطات التاريخية التي عايشها المؤلف أو استلهمها من كتب التاريخ، وما تيسر من الوثائق والمخطوطات، وصارت جزءا لا يتجزأ من الإبداع الأدبي الذي عرى الواقع العربي وبعث الماضي في قالب فني لا يخلو من الجمالية.

إن استدعاء الرواية للتاريخ واستحضارها لكثير من وقائعه لا يجعل منها تاريخا، بل رؤية للتاريخ؛ لأن غاية الأدب فنية جمالية، فالرواية فن يتسم بالمرونة وينفتح على الدين والفلسفة والفن والسياسة وغيره من المجالات التي تستفز قريحة الراوي، إذ «يلتقي الروائي والمؤرخ في اعتمادهما على معطيات التاريخ ووقائعه منابع مشتركة، ينهلان منها، لكنهما يختلفان في كيفية التعامل مع المادة التاريخية، وأيضا في هامش الحرية المتاح لكل منهما».[1] تمنح جمالية الأدب إذن الأديب فضاء واسعا من الحرية يسمح له بنقد التاريخ وخلخلة توازناته وإعادة التعبير عنه بما يتوافق مع رؤية الأديب وإيديولوجيته في قالب إبداعي لا يخلو من الجمالية، يستمد أحداثه من التاريخ لكنه يعبر عنها بأسلوب الأديب لا أسلوب المؤرخ.

وتجدر الإشارة إلى أن تبنّي التاريخ للسرد لا يجعل منه رواية في كل الأحوال، فالتاريخ «شأنه شأن الرواية، خطاب سردي. ومهما بالغنا في إسباغ البعد المرجعي فإنه يظل خطابا منجزا في مقام محدد تتحكم فيه اعتبارات شتى توجهه وتضيء مسالك قراءته. وكذلك الشأن بالنسبة إلى الرواية، فهي وإن بدت لنا خطابا تخييليا، لا تنقطع صلتها بالمرجع انقطاعا تاما. ومن هنا تتخذ الصلة بين الرواية والتاريخ صورا متعددة، يحتاج الكشف عن مختلف جوانبها إلى تقص لا يخلو، والحق يقال من متعة وإغراء».[2]

1. ينظر: هنية جوادي."التمثيل السردي للتاريخ الوطني في روايات واسيني الأعرج". مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري-جامعة بسكرة، العدد 09، 2013، ص: 253

2 . محمد القاضي. الرواية والتاريخ: دراسات في تخييل المرجعي. دار المعرفة للنشر، تونس، ط1، 2008، ص: 18

يمكن القول إذن أنّ الخطاب التاريخي خطاب نفعي يسعى إلى الكشف عن القوانين المتحكمة في تتابع الوقائع، له لغته الخاصة ويتكئ في غالب الأمر على السرد الخطي، في حين أن الأدب والرواية على وجه الخصوص، خطاب جمالي تتقدم فيه الوظيفة الإنشائية (الجمالية) على الوظيفة المرجعية، له خصائصه وسماته التي تميزه عن بقية الخطابات إذ يستند فيه الراوي على أنماط ومستويات كثيرة من السرد كاللغة الرمزية.

وبالتالي يمكن القول إن التخييل التاريخي هو تلك المادة المستعارة من الماضي، حيث أعاد الروائي تشكيلها بواسطة السرد، فانقطعت عن وظيفتها التوثيقية، وأمست تؤدي وظيفة جمالية ليست غايتها تأكيد أحداث التاريخ، ولا إبرام عقد يؤكد مصداقيتها. وهذا ما يضعنا أمام جنس ثالث يمتزج فيه الخيال بالتاريخ، فهو لا يحيلنا على حقائق الماضي كما هي، ولا يؤكدها أيضا، مما يوحي بانفلاته من كل الحدود؛ حدود التاريخ والجمال معا، وقد ظهرت هذه الكتابات على خلفية أزمات الهوية والتأصيل.[3]

يسمي "**بول ريكور**" (Paul Ricœur) الطريقة التي يتم من خلالها تفعيل الماضي أو استحضاره في الأعمال الأدبية باسم "**التكرار السردي**" الذي يعتبره فعل تأسيس جديد لما دُشن من قبل، فالمهمة «الأساسية لمفهوم التكرار هي إعادة تأسيس التوازن إلى فكرة التراث المتداول».[4] يمكن القول إن التكرار السردي – حسب "**ريكور**"- يتيح للراوي نقد ومراجعة الكثير من المحطات التاريخية، وهذا ما نعتبره عدم اكتفاء بالمصادر الرسمية أو الشفوية؛ نظرا لما يعتريها من هفوات وتشويه للحقائق، فضلا عن تهميشها للكثير من الحقائق والشخصيات التاريخية. إن تمثيل الرواية للتاريخ يؤكد فكرة (التاريخ لا يكتب مرة واحدة)؛ ذلك أن الحدث يحدث مرة واحدة ولكن يمكن التعبير عنه أكثر من مرة من خلال وسائط كثيرة لعل أبرزها محكيات التخييل كما يسميها "**بول ريكور**" على غرار الرواية والقصة والملحمة وأدب الرحلة وغيرها. بالإضافة إلى المحكيات التي تنزع إلى الحقيقة ولها صلة وثيقة بالتاريخ وأقصد بذلك مختلف الأجناس الأدبية المتصلة بالسيرة والسيرة الذاتية التي من شأنها احتواء أحداث تاريخية مهمة.

3. عبد الله إبراهيم. موسوعة السرد العربي. ج8، قنديل للطباعة والنشر والتوزيع، دبي، ط1، 2016، ص: 06

4. بول ريكور. الزمان والسرد (الزمان والمروي). الجزء الثالث، ترجمة: سعيد الغانمي، مراجعة جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2006، ص: 113.

يرى "**عبد الله إبراهيم**" أن التخييل التاريخي أكثر تحررا ومرونة من التاريخ، يستعير مادته من التاريخ لكنه يسعى من وراء ذلك إلى الانفلات من القيود والضوابط المفروضة على التاريخ، «فالمسارات التي يقترحها "التخييل التاريخي"، تنقل الكتابة السردية من موقع جرى تقييد حدوده النوعية إلى تخوم رحبة للكتابة المفتوحة على وقائع التاريخ، فلا تكبح بذريعة الامتثال لشروط نوعية صارمة، إنما يرخص لها في استلهام الماضي من أجل تطوير رؤية تجاه الحاضر. وفي هذا الضرب من الكتابة لا ينصرف الروائي عن التاريخ، أو يعرض عن الإفادة منه، بل يستدعيه عبرة، ويسجله أمثولة».[5] تسعى الأشكال السردية التي تفيد من التاريخ إلى فهم الماضي كما ينبغي بعيدا عن كل القيود والأحكام الجاهزة والمفروضة على التاريخ بوصفه كيانا تديره وتتحكم فيه العديد من المؤسسات، ثم إن الوعي الصحيح بالماضي يتيح لنا التفكير في الحاضر وبلورة تصوراتنا وتطلعاتنا بصورة صحيحة.

أخذت الرواية الجزائرية على عاتقها رصد التحولات الكبرى في تاريخ الجزائر، من تمثيل للتجربة الاستعمارية بكل مظاهرها، ومجازر الثامن ماي والعشرية السوداء وغيرها من المحطات الكبرى في تاريخ الجزائر، كما سلطت الضوء على مختلف الاختلالات والتجاوزات التاريخية، «فالرواية لا تنشأ من فراغ، وإنما هي ثمرة تأمل متأن في الواقع بأبعاده السياسية والاجتماعية والثقافية، وهي معاناة وقلق وانشغال، فإنها في بنيتها الخطابية تبدو أقدر على طرح أسئلة الخير والشر، والتصوف الدنيوي، الموت والحياة، السياسة والدين، وغيرها من المتناقضات التي يحفل بها الوجود».[6] فتوظيف الرواية للتاريخ إنما هو نتيجة حتمية لانفتاح النص الروائي الذي أخذ على عاتقه ضرورة التعبير عن واقع الشعوب وطرح مشاكل الأمة التاريخية والسياسة والدينية في قالب سردي امتزج فيه الألم بجمال الأدب، فالنص الأدبي له عالمه الخاص الذي «يدخل بالضرورة في تصادم قوي بالعالم الحقيقي، لكي يعيد "صنعه" إما يؤكده وإما بأن ينكره. لكن حتى العلاقة الأكثر سخرية التي يقيمها الفن بالواقع، ستكون غير مفهومة إذا لم يقلق الفن

5. عبد الله إبراهيم. موسوعة السرد العربي. ج8، ص: 05

6. إدريس الخضراوي. سرديات الأمة تخييل التاريخ وثقافة الذاكرة في الرواية المغربية المعاصرة. أفريقيا الشرق، المغرب، دط، 2017، ص: 61

علاقتنا بالواقع، وإذا لم يعد ترتيبها».[7] تعدّ العلاقة بين السرد التخييلي والعالم الحقيقي ممثلا في التاريخ علاقة معقدة إلى حد ما، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالجانب الذي يقتضي إنكار العالم الحقيقي ويسعى إلى إعادة صياغته، مما يعني الوقوف في وجه جملة من الحقائق المسلّم بها. وقد يخلق هذا التصادم مواقف معادية وانتقادات كثيرة للأفكار السائدة في الذهن الجمعي ولا يتأتى هذا النقد إلا بقراءة جديدة للتاريخ وفق قالب سردي تخييلي يسعى إلى إعادة هيكلة الواقع وتحريره من الهيمنة التي تمارسها الجهات الرسمية وغير الرسمية على الحقيقة.

أولت الرواية الجزائرية الحديثة اهتماما بالغا بالتاريخ الجزائري الحديث على وجه الخصوص، فكانت ثورة الفاتح من نوفمبر من أبرز المواضيع التي ألهمت أغلب الروائيين الجزائريين الذين دافعوا عن الهوية الوطنية والقومية كغيرهم من كتاب الرواية ما بعد الاستعمارية الرافضين لكل أشكال الإقصاء والتهميش الذي مارسته المركزية الغربية. بينما عبر البعض عن الأثر الذي خلفه الاستعمار في البلدان المستعمَرة خاصة ما تعلق باللغة والثقافة والهوية، فكانت الرواية لسان حال لواقع الشعب الجزائري في علاقته بالمستعمِر الفرنسي الذي سعى إلى طمس الهوية الوطنية للشعب وإذلاله والإساءة إلى مقدساته. كما صورت الرواية الصراع الإيديولوجي بين الجزائريين، إذ «يتوزع علم التاريخ والرواية على موضوعين مختلفين، يستنطق الأول الماضي ويسائل الثاني الحاضر، وينتهيان معا إلى عبرة وحكاية. بيد أن استقرار الطرفين، منذ القرن التاسع عشر، في حقلين متغايرين لم يمنع عنهما الحوار، ولم ينكر العلاقة بين التاريخ والإبداع الأدبي».[8] أسهمت النتاجات الأدبية على اختلاف أشكالها في التعبير عن واقع الأمة وتفاعلت مع الأحداث الكبرى بطريقتها، وقد سمح الفضاء الزمكاني الرحب للأعمال السردية باحتواء جزئيات مهمة من تاريخ وواقع الأمة المتأزم.

ويصف "**نجيب محفوظ**" الرواية بالفن الذي يُوَفِّق ما بين شغف الإنسان الحديث بالحقائق وحنينه الدائم إلى الخيال.. وما بين غنى الحقيقة وجموح الخيال. فقد سعت الرواية الجزائرية إلى إعادة كتابة التاريخ وتجسيد الثورة الجزائرية في فضاء خيالي

7. بول ريكور. من النص إلى الفعل: أبحاث التأويل. تر: محمد برادة، حسان بورقية، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، ط1، 2001، ص: 13

8. فيصل دراج. الرواية وتأويل التاريخ: نظرية الرواية والرواية العربية.المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2004، ص: 09

يجسد الاعتزاز بتاريخ الأمة ويتغنى بثورة الفاتح من نوفمبر التي كانت ملهما للجيل الأول من الروائيين الجزائريين الذين استحضروا في رواياتهم بطولات الشعب وتضحيات الرجال في سبيل الوطن. كما عرجت هذه الكتابات على واقع الجزائريين الاجتماعي والديني والاقتصادي من أجل نقل صورة حية عن الجراح الكبيرة والمآسي التي خلفها الاستعمار في نفوس الجزائريين.

عبر الأدباء الجزائريون عن دعمهم لثورة الفاتح من نوفمبر مثلما عبروا عن رفضهم لكل أشكال الذل والاضطهاد المسلط من قبل المستعمِر الفرنسي الذي لم يتوان أبدا في تكميم الأفواه وإخراس أصوات الطبقة المثقفة التي ظلت تقاوم كل محاولات طمس الهوية الجزائرية، وتنادي بالحرية والانعتاق من كل القيود التي فرضها المستعمِر، ولعل من أشهر الروايات الجزائرية التي استمدت مادتها من الثورة نذكر: "ثلاثية" **محمد ديب**، "نجمة" **لكاتب ياسين**، ابن الفقير **لمولود فرعون**، الربوة المنسية **لمولود معمري**، "سأهبك غزالة" **لمالك حداد**، "التفكك" **لرشيد بوجدرة** و"صهيل الجسد" **لأمين الزاوي**، و"زمن النمرود" لـ: **الحبيب السائح** و"ما تبقى من سيرة الأخضر حمروش" **لواسيني الأعرج**، وغيرها من الروايات التي استثمرت في موضوع الثورة.[9]

وتعدّ رواية "اللاز" **للطاهر وطار** من أهم روايات مرحلة التأسيس للرواية الجزائرية التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بمنجزات الثورة الجزائرية فالرواية « تسرد أحداثا تسعى لأن تمثل الحقيقة، وتعكس مواقف الإنسان وتجسد ما في العالم؛ أو تجسد من شيء مما فيه على الأقل. ذلك لأن الرواية تتميز عن الملحمة بكون الأخيرة شعرا، وتلك تتخذ لها اللغة النثرية تعبيرا».[10] فكانت ذلك السجل الحافل بالبطولات والتحديات التي خاضها الجزائريون ضد المستعمر الفرنسي في سبيل صون هويتهم واسترجاع حريتهم، وقد منح الرصيد السياسي للروائيين الجزائريين الذين مثلوا مرحلة التأسيس نفسا عميقا في التعاطي مع الأحداث التاريخية والسياسية في الساحة الجزائرية ونذكر على سبيل التمثيل لا الحصر "**عبد الحميد بن هدوقة**" و"**محمد عرعار**" و"**الطاهر وطار**" وغيرهم ممن ساهموا بوعيهم السياسي في إنتاج منجز روائي قادر على تجسيد الواقع ونقد التاريخ

9. ينظر: نوارة لحرش. (2014.11.03)، استطلاع: كيف قرأت الرواية الجزائرية الثورة؟، موقع: https://www.djazairess.com/annasr/74070 . تاريخ الاطلاع: 2019.12.08

10. عبد المالك مرتاض. في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد. عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت، عدد 240، ديسمبر 1998، ص: 12

ونشر الوعي في صفوف الشعب من أجل المضي قدما في بناء جزائر الاستقلال. ولعل هذا ما يدفعني إلى التساؤل عن مدى نجاح رواية "**اللاز**" في تمثيل التاريخ ومدى استيعابها لمختلف الأحداث والوقائع التي عايشها الجزائريون في الماضي والحاضر.

1. تمثيلات الذات المستعمَرة:

كثيرا ما يوصف الأدب بأنه مرآة الشعوب ولسان حالها وهذا ما دفع بالكثير من الأدباء الجزائريين إلى تصوير واقع المجتمع في ظل الاستعمار الفرنسي وتعرية الزيف الذي ظلت القوة الاستعمارية تروّج له، إذ تستعيد الرواية ذاكرة الثورة وتحاول تشريح الأزمة والوقوف عند أسباب العنف، في حين كانت تيمة الوطن هي البؤرة المركزية في نصوص الروائيات التي تماهى فيها الخيال بالتاريخ ليؤكد على وعي الأديب بالتاريخ وإن اختلفت الموضوعات، فهي منه تخرج وإليه تعود فنيا.[11]

يعبّر "**الطاهر وطار**" عن الفقر والبؤس الذي أبى أن يفارق الجزائريين على لسان الشيخ "**الربيعي**" الذي بدأ في تحريك أحداث الرواية لحظة داهمه طيف الماضي، فسرح بذاكرته إلى الماضي القريب حين كان واقفا في طابور المنح ينتظر دوره، لينتقل من الحاضر إلى الماضي يسترجع الأفراح والمحن التي عايشها كغيره من الجزائريين الذين تجرعوا مرارة الاستعمار لسنوات طوال، ويصف الشيخ "**الربيعي**" حجم المأساة قائلا: «إننا كما غرفنا أنفسنا، منذ خلقنا، "الشيشان" على رؤوسنا تكاد تقطر وسخا، "البرانس" مهلهة، رثة، متداعية، والأحذية مجرد قطع من الجلد أو المطاط، تشدها أسلاك صدئة، والأوجه زرقاء جافة.. ليس لنا من الماضي إلا المآسي.. وليس لنا من الحاضر إلا الانتظار.. وليس لنا من المستقبل إلا الموت.. نتآكل كالجراثيم، وليس غير...»[12] تمثل شخصية الشيخ "**الربيعي**" معاناة الجزائريين -التي لم تكن يوما ظرفية- حيث لازمت الجزائريين منذ قرون بعيدة، مما يوحي بحجم البؤس وعمق المأساة التي سببها الاحتلال الفرنسي.

إن تعبير الروائي عن معاناة شعبه وتعريته للواقع يتفق مع مهمة السرد عند "**سعيد يقطين**" التي تتلخص إجمالا -إن لم نبالغ- في تجسيدها «للعالم من خلال رؤية

11. ينظر: آمنة أمقران. «كتابة الثورة... ثورة الكتابة في الرواية الجزائرية». موقع: https://manifest.univ-ouargla.dz/archives/facult%C3%A9-des-lettres-et-des-langues-fll.html ، تاريخ الاطلاع: 10 ديسمبر 2019.

12. الطاهر وطار. اللاز. موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص: 6، 7

راو يتكلف بتمثيل الواقع من منظوره الخاص طبعا. لكن هذا المنظور وإن كان ذاتيا، فأنه يظل يحمل جوانب متميزة تتصل بالموضوع الممثل».[13] لذلك فالرواية وُجدت من أجل إعادة تمثيل الواقع بكل تفاصيله وفق رؤية الأديب الخاصة التي تخضع لجملة من المبادئ والقيم والأيديولوجيات. فالكتابة عن الواقع وتجسيده في عالم النص إنما جاءت لتضيف ما غاب أو ما يجب أن يكون بل إنها تنقل تصورات وتطلعات الأديب للواقع الذي يحلم به ويطمح إليه رفقة أبناء جلدته.

يستمر الروائي في التعبير عن الفقر والبؤس الذي ظل ملازما للذات الجزائرية بسبب الاحتلال الفرنسي مستعرضا معاناة معلم القرآن "**حمو**" الذي يشتكي لصديقه "**قدور**" عجزه المادي قائلا:«يا ابن عمي هذه والله ما هي خبزة. أربعون دورو في اليوم، وأربعة عشر فما مفتوحة. الدقيق بعشرين دورو للكيلو.. والزيت بأربعين، والصابون بخمسة عشر القالب، وزد، وزد.. "معيشة" كلاب والله.»[14] يبدو جليا تأثر الأديب بمعاناة شعبه في محاولة منه لإيصال أصوات هذه الفئات المهمشة، فقد تمثّلت الرواية معاناة الذات المستعمَرة وعذاباتها من أقسى حالات العنف الممارس عليها ماديا ومعنويا. فالروائي بإمكانه «أن يعود إلى هذا السجل كمصدر توثيقي فيقارن ويختار، طالما أن هذا التاريخ هو سيرة الأفراد والشعوب والمجتمعات بكل إنجازاتهم وإحباطاتهم، فيهم الحسن والقبيح، الصديق والعدو، العالم والجاهل....يأتي الروائي إلى هذا الموروث المتنوع ويستفيد من كل جزئياته الظاهرة والخفية، ليقرأها ثم يعيد تشكيلها وفق رؤية خاصة به تتناسب وشروط عمله الفني».[15] فالرواية تهدف إلى نقد الواقع ومحاولة إصلاحه. فهذا المقطع يبين كغيره من المقاطع حجم البؤس والشقاء الذي لازم الجزائريين، فضلا عن الأسقام التي كانوا يعانون منها، وهذا إن دل فإنه يدل على الانهيار الاقتصادي والصحي للسكان بسبب الوجود الفرنسي بالجزائر، كذلك تجدر الإشارة إلى أن واقع الجزائريين أثناء الوجود العثماني لا يقل بؤسا عن واقعهم تحت قبضة المستعمر الفرنسي، فالعثمانيون الذين حكموا الجزائر لقرون لم يولوا أهمية للأهالي، واستبدوا

13. سعيد يقطين. قضايا الرواية العربية: الوجود والحدود. دار الأمان، الرباط، ط1، 2012، ص: 171

14. الطاهر وطار. اللاز. ص: 22

15. نورة بعيو. " أشكال وتقنيات توظيف المادة التاريخية في الرواية العربية المعاصرة". مجلة الخطاب، العدد 09، جوان 2011، ص: 42

بالسلطة واستذلوا السكان واستعلوا عليهم وعاملوهم معاملة المنتصر للمهزوم، وانعزلوا عنهم في قصورهم وأساؤوا التصرف معهم وكانوا يتذكرونهم كلما حل موعد جمع المحلة (الضرائب) مما أسس لبلد ضعيف على جميع المستويات.[16]

2. وحشية المستعمِر:

لا تخلو رواية الثورة من الصور التي تصف همجية ووحشية المستعمِر الفرنسي الذي تفنن في تعذيب الجزائريين في سجونه التي لا تزال زنزاناتها إلى يومنا هذا تروي قصص التعذيب باستعمال مختلف الوسائل التي ابتكرت خصيصا من أجل إجهاض الثورة التحريرية، حيث ينقل "**وطار**" مشاهد التعذيب التي تعرض لها الشعب الجزائري متمثلا في "**اللاز**" الذي كان يجره جنديان «من ذراعيه، وثمانية يستحثونه السير باللكمات والضرب بمؤخرات البنادق، بينما الدماء تتطاير، من أنفه ووجنتيه، وجبهته وشفتيه، وهو يترنح تارة، ويقاوم أخرى...»[17] يبدو أنّ التعذيب الفعلي الذي ينتظر "**اللاز**" في الزنزانة لا يمكن مقارنته بما تعرض له من ضرب أثناء إلقاء القبض عليه، فسجون المستعمر الفرنسي تحتوي على ورشات مخصصة لتعذيب الجزائريين بأبشع الطرق التي تنم عن وحشية ونذالة الفرنسيين؛ إذ يتوعد الضابط "**اللاز**" بأنه مهما تثاقلت خطواته لن يفوته نصيبه من التعذيب، فما إن دخل "**اللاز**" الغرفة وأنيرت الأضواء «حتى جردوه من الثياب وأوثقوه بأسلاك نحاسية وقذفوا به فوق منضدة خشبية ثبتت على سطحها مسامير حادة وانهمكوا يجلدونه... الغطس في الماء مع الكهرباء... تلوى متألما وزأر من أعماقه: آي.. آي».[18] مهما حاول الأديب والمؤرخ الحديث عن مراكز التعذيب الفرنسية التي قتل فيها مئات الآلاف من الجزائريين فلن يتمكن أي منهما وصف وتصوير ما يجري في تلك الورشات السرية التي تنبعث منها رائحة الموت ودماء الشهداء الزكية.

أما من بين الصور التي توحي بهمجية المستعمر الفرنسي التي لم يسلم منها الإنسان والحيوان معا ما يتوارد إلى ذاكرة "**قدور**" الذي كان «يتذكر جيدا كيف كانت الطائرات تقذف مئات القنابل تنفجر هنا وهناك وفي كل مكان، وكيف كان هو وكل أفراد

16. للتوسع ينظر: أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830). ج1،دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998. ص: 141

17. الطاهر وطار. اللاز. ص: 13

18. المصدر نفسه، ص: 64

دواره يتراكضون في الحصائد كالمجانين، والنيران تلتهب من تحتهم ومن فوقهم... آه... ذلك الحمار المسكين، كان واقفا يحاول فهم ما يجري حوله، مرت طائرة المسكين واقفا لحظات، ولما حاول أن يتقدم انشطر إلى اثنين...»[19] لقد ساهمت مختلف الكتابات في رسم وتجسيد مشاهد حية عن التعذيب والهمجية التي عامل بها الاستعمار الجزائريين، فقد تعرض الشعب الجزائري كغيره من الشعوب المستعَمرة إلى شتى أنواع التقتيل والتعذيب التي تنوعت أساليبها وإلا كيف نصف العدد الهائل من الشهداء الذين يسقطون ليل نهار.

كما يعدّ تعدي الضابط الفرنسي على محارم الجزائريين بأن أمر "**بعطوش**" بمضاجعة خالته ثم راح بعد ذلك يحتفل ويسلي جنده من السلوكات التي تنم عن دونية ونذالة الجيش الفرنسي «بقصة بعطوش مع خالته... يقينا أن مضاجعة المحرمات ألذ شيء على الإطلاق... وارتفعت القهقهات صاخبة رنانة...»[20] فما قام به الضابط الفرنسي ينم عن نذالة الجنود الفرنسيين وإلا ما كان ليتجرأ الضابط ليأمر "**بعطوش**" أن يعاشر خالته من أجل تسلية جنوده بفكرته المشؤومة. فنذالة الفرنسيين تجسدت في التعدي على محارم الجزائريين ومقدساتهم، من تهديم للمساجد وتحويلها إلى إسطبلات، ولم يسلم من بطشهم حتى الأموات حتى الأموات فتجرأوا على فتح القبور وإخراج عظام الموتى واستعمالها في صناعة السكر.[21]

3. الصراع الأيديولوجي:

تجسد رواية "**اللاز**" الصراع الإيديولوجي الذي كانت تعيشه الجزائر إبان الثورة التحريرية، فالاختلاف الفكري كثيرا ما كان ينتهي بإراقة الدماء مثلما حصل مع "**زيدان**" والد "**اللاز**" الذي ذُبح مع رفاقه بسبب توجههم الشيوعي، فعلى الرغم من اعتراف "**زيدان**" قائلا:« يوم التحقت بالثورة لم أستشر أحدا. لا الحزب ولا غيره رغم أنني عضو اللجنة المركزية. أوجبت الظروف المحيطة بي ذلك، ففعلت وإذا ما سئلت، هل انسلخت من حزبي، فسأجيب فورا بالنفي... وسأظل أكافح، من أجل الاستقلال الوطني».[22] إن

19. المصدر نفسه، ص: 36

20. المصدر نفسه، ص: 152

21. للتوسع ينظر: أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975. ص:36

22. الطاهر وطار. اللاز. ص: 163

المتأمل فيما قاله "**زيدان**" يدرك أن الثورة جمعت بين جميع فئات الشعب على اختلاف توجهاتهم، فالكثير من أبناء الشعب انضموا إلى الثورة غير آبهين بالحزبية، فكان انضمامهم تلبية لنداء الوطن والكفاح من أجل الاستقلال الوطني غير أنه تجدر الإشارة إلى أن مثل هذه الصراعات ستظل هامشية وليست من صميم الثورة، فالثورة لم تكن حكرا على مجموعة بعينها وإنما كانت ثورة شاملة شارك فيها كل أبناء الشعب رغبة منهم في تغيير أوضاعهم و افتكاك استقلالهم كغيرهم من الشعوب المحتلة.

ينبئ تصوير الروائي لمشهد إعدام "**زيدان**" على يد الشيخ المتعصب أمام ابنه "**اللاز**" بسبب توجهه الشيوعي وتسلحه بالثقافة الفرنسية عن رسالة مشفرة تحمل بين طياتها نقدا لانحراف بعض الفئات عن مسار الثورة الذي يستوجب نبذ الخلافات الداخلية والتركيز على تحرير الوطن من قبضة المستعمر، فالثورة حق الجميع وملك لأبناء الشعب بغض النظر عن توجهاتهم، فالاختلاف الأيديولوجي يحل على طاولة الحوار وليس بالتصفية الجسدية. فقد «اهتمت الرواية العربية الجديدة بعد 1967 بالسلطة والحاكم باعتبارهما معا مهندسي الواقع العربي وكل مآسيه. إنهما معا، اثنان في واحد، وراء كل المشاكل التي يعاني منها المجتمع العربي في العصر الحديث».[23] تعدّ قضية الاستبداد والديكتاتورية التي تمارسها السلطة في حق معارضيها من بين أهم القضايا التي تتطرق إليها الرواية العربية ،هذه القضية التي لا تكاد تخلو منها رواية عربية كان موضوعها السلطة أو تناولت جوانب تبدو ظاهريا لا علاقة لها بالسلطة. مما يجعلنا أمام رواية متمردة تنقد السلطان وتعبر عن الاستياء واليأس الذي لحق بالرعية بسبب الاستبداد وإن كان ذلك ضمنيا بسبب تضييق الحريات وإخراس الأفواه التي تنادي بالحق في العيش الكريم. وينبغي الإشارة إلى أن حضور السلطة ومختلف مؤسساتها في الرواية العربية الحديثة لا يكاد يناظره في الرواية العالمية غير ما نجده في الرواية أمريكا اللاتينية نظرا للتشابه الكبير بين التجربتين رغم خصوصية كل منهما.[24]

4. المقاومة وحلم الحرية:

استبشر الكثير من الجزائريين بثورة الفاتح من نوفمبر التي اعتبرت المخلص الوحيد من الاحتلال الفرنسي الذي أثبت لهم بعد مجازر الثامن ماي أنه يخدعهم وأن

23. سعيد يقطين. قضايا الرواية العربية: الوجود والحدود. ص: 175

24. ينظر: المرجع نفسه، ص: 176

استقلالهم لا يؤتى إلا بالقوة وتوحيد الصفوف وترك كل الخلافات جانبا، حيث ينقل "**وطار**" ردة فعل الجزائريين عند رؤيتهم لعربات الجيش الفرنسي تعود من أرض المعركة تجر أذيال الهزيمة «عائدة مغبرة دكناء، من ميادين العمليات، وسط تعاليق تتسرب من هنا وهناك:

- خسارتهم كبيرة اليوم.

- كأنهم راجعون من جنازة.

- أخبارهم وصلت بعد.. هيلولة هيلولة.. ربي يتمم».[25] إن المتأمل في التعاليق المنتشرة في أوساط الجزائريين يدرك حجم الحقد الذي يكنه الجزائري للجيش الفرنسي بسبب ما ألحقه بالأبرياء والمدنيين العزل من تعذيب وتقتيل وتشريد... وهذا ما دفع بالجزائري إلى التشفي في الجيش الفرنسي والتعبير عن دعمه المطلق للثورة التحريرية. فحديث الناس لا يخرج عن المعارك والذبح وتخريب الأسلاك والسكك الحديدية والجسور ومختلف العمليات التي يقوم بها الثوار...[26]

كما يعرض "**وطار**" أبرز الأسباب التي دفعت بالشعب الجزائري للانتفاضة وتبني خيار الثورة المسلحة على غرار البؤس والفقر، حيث يعبر "**حمو**" لابن عمه "**قدور**" عن شعوره بالتعب بسبب عمله في الحمام مقابل دراهم معدودات قائلا: «أن الوضع الذي أصبح عليه الناس من فقر، وبؤس، وعري، وجهل، ومرض، وظلم، وجور، يجبرهم على العمل من أجل التخلص منه. وهذا العمل ليس سوى الثورة، ليس سوى التمرد على الأسياد، على كل شيء، على هؤلاء الأسياد الذين... لم يفهموا ولا يريدون أن يفهموا إلا أمرا واحدا، هو مصلحتهم ... مصلحتهم التي تتعارض مع مصالح جميع الناس».[27] لاشك أن الظروف السيئة التي لازمت الجزائري منذ قدوم المستعمر الفرنسي قد ساهمت في تعميق الهوة بين الطرفين حتى أضحى خيار الثورة الأنسب من بين كل الخيارات المتاحة لدى الجزائريين، ففرنسا التي كانت السيد على الأرض لم تفكر يوما في مصلحة الأهالي وهذا مسوغ آخر للانتفاضة على الظروف المزرية التي خلفها الاستعمار.

25. الطاهر وطار. اللاز. ص: 09

26. ينظر المصدر نفسه، ص: 40

27. المصدر نفسه، ص: 41

كما ينقل "**وطار**" جزءا من الحوار الذي يحاول فيه "**حمو**" إقناع ابن عمه "**قدور**" بضرورة الانضمام إلى الثورة المسلحة التي توشك على الاندلاع يرد عليه "**قدور**" قائلا: «تتكلم يا حمو عن الثورة كما لو كانت قريبة هنا في الزقاق وأنا أرفض الالتحاق بها. ابتسم حمو ابتسامة طرب وانتصار، وردد:- قريبة، قريبة جدا.متى بعدت؟ إن كنت تحب أن تعمل، فالأمر سهل.

- إذا كنت أحب. أحب ليس هناك من يحب. كل الناس مجبرون.

- أي نعم مجبرون. وهذا ما أردت إقناعك به».[28] يدرك المتأمل في حوار أبناء العم أن الثورة أضحت الخيار الوحيد بالنسبة للجزائريين، فهي الحل الأمثل الذي من شأنه أن يسترجع كرامتهم وعزتهم، ولا يمكن لأي كان التخلف عنها إلا إذا كان خائنا !

أنست الثورة "**حمو**" قصص الحب التي كان يعيشها مع بنات صاحب الحمام هذه القصص التي كان يسردها لابن عمه "**قدور**" كلما التقى به، فقد انغمس "**حمو**" منذ شهر في الحرب «يجمع أخبارها، يروجها بين المعارف والثقات... مبشرا بتغيير الوضع وتبديل حال بأخرى، لا يدري كنهها، ولو أنه بحدس بدائي جدا، وبغريزة غامضة كثيرا... وزاد حدسه هذا تأكيدا أن المذبوحين كلهم إما فرنسيون وإما أغنياء... أعيان، وقياد، وخوج، وشنابيط...»[29] دفع الحرمان والقهر الذي سلطته فرنسا على سكان الريف -الذي تدور فيه أحداث الرواية- بالسكان إلى تبني منهج المقاومة، فقد آمن "**حمو**" بالثورة وتمسك بها كغيره من الجزائريين الذين ليس لهم أي انتماء حزبي أو أيديولوجي "**فحمو**" ليس كأخيه "**زيدان**" الشيوعي الذي درس في الجامعة وعاش بفي فرنسا وأتم دراسته في روسيا... بل إنه مجرد معلم للقرآن يشتغل في فرن الحمام لا غير مما يوحي بأنه لا يحمل أية خلفية سياسية أو حزبية...

يتطلع"**حمو**" إلى مستقبل أفضل بعد الاستقلال، فما إن يخرج الفرنسيون سيفقر«الأغنياء وينعدمون، وينام جميع الناس على الشبع. نقرأ كلنا. نتعلم العربية والرومية، بما فيها الإنجليزية والألمانية والروسية. يصبح الحاكم من عندنا... الشانبيط والخوجة، والقائد والشرطي منا...نصير فاهمين، نظيفين، جميلين، محترمين

28. المصدر نفسه، ص: 40

29. المصدر نفسه، ص: 35

كالفرنسيين».[30] يعلق "**حمو**" -كغيره من الجزائريين- أمالا كبيرة على الثورة التحريرية التي يرى في نجاحها تغييرا جذريا في حياة الجزائريين من استعادة للغتهم الأم وتعلمهم الفرنسية بمحض إرادتهم دون إكراه بل وأنهم سيدرسون لغات أخرى، كما أنهم سيتمكنون من انتخاب من يحكمهم، ويسترجعون احترامهم بمجرد حصولهم على الاستقلال لأن الاحتلال قد جردهم من مكانتهم وأذلهم مما أشعر البعض بعقدة النقص أمام الفرنسيين...

يُذكِّر "**حمو**" ابن عمه "**قدور**" أن التطلع إلى الحرية حلم تشاركه وتتطلع إليها جميع الشعوب المستعمَرة قائلا: «هناك أيضا المصريون، والتونسيون، والمغاربة وحتى الكفار أيضا... ففي الهند الصينية أناس مثلنا، ولو أن دينهم يختلف عن ديننا... كان يحكمهم الفرنسيون فثاروا عليهم وغلبوهم، وهربت فرنسا منهزمة».[31] تأسيسا على ما جاء به "**حمو**" يمكن القول أن أحلام الشعوب المستعمرة واحدة، فضلا عن تأثرها بعضها البعض، فموجة التحرر تنتقل من بلد إلى آخر كما لو أنها عدوة وكم ألهمت ثورة الهند الصينية الجزائريين، فاقتدوا بها وأدركوا أن بإمكانهم هزم الفرنسيين أيضا وإخراجهم من بلادهم.

ينجح "**حمو**" في إقناع ابن عمه "**قدور**" بضرورة المشاركة في الثورة، فيشرع هذا الأخير في شراء «الأدوية، والأحذية، والمواد الغذائية، وإرسالها إلى حيث لا يدري... وكم ذهل حين رأى حمو الفقير البائس، يخرج الملايين من جيبه، بينما عائلته تتضور جوعا، ولباسه ممزق رث كالعادة، بل وعمله الشاق لم يتغير، وشعر بعطف واحترام، لهذا الصديق العجيب... وفهم أكثر من قبل، أن الثورة أن هذا العمل الذي يقوم به حمو، وزيدان، وكل الفقراء وحتى هو أخيرا، عمل جاد وعظيم، لابد وأن يغير الأوضاع فعلا، كما يقول حمو. أكثر من ذلك شعر باحتقار المال الذي كان يظن أنه سر الحياة».[32] يستدعي نجاح الثورة تضحيات كبيرة ،"**فحمو**" المعلم الفقير الذي اضطر للعمل في الحمام -لإعانة أسرته المكونة من عشرة أفراد- لم تغره أموال الثورة التي كان يشتري بها الدواء والمؤونة والألبسة للثوار، وقد أثر هذا الموقف في صديقه "**قدور**" البورجوازي الغني الذي أحب المال واعتبره سر الحياة، فتراجع عن كل الأفكار البورجوازية التي

30. المصدر نفسه، ص: 36
31. المصدر نفسه، ص: 36
32. المصدر نفسه، ص: 42، 43

اكتسبها في دكان أبيه بعد إدراكه أن الوطن قبل كل شيء مثلما أدرك أن الثورة ثورة الجميع أغنياء وفقراء لأن البلد واحد والدم واحد.

يستمر "**وطار**" في استحضار تطلعات وأحلام "**حمو**" الذي آمن بالثورة أكثر من أي شيء. يحلم بوطن يتسع للجميع لكل الفئات على اختلاف توجهاتها وأصولها، «فهذا الجنين يجب أن يرث كل الخلايا، البيض والحمر، وحتى السود، نعم، سيرث كل الخلايا، وحتى السود. ويجب أن يرضع اللبن الطبيعي، لبن أمه، لا اللبن الاصطناعي، وأن يحبو وينهض ويسقط ويمشي على أرضية طبيعية غير مكنوسة. لأنه سيولد بدون قابلة».[33] إن صورة الجزائر المستقلة التي رسمها "**حمو**" في مخيلته هي الصورة ذاتها التي يؤمن بها الروائي الذي عاصر الجزائر المستقلة، وهي صورة تنم عن الوعي والحس الوطني الكبير الذي ولد مع "**حمو**"، فهو يأمل أن لا تنحرف الثورة عن مسارها بإقصاء فئة من الفئات، فيولد الجنين مشوها أو ناقصا؛ إنه يأمل أن تسع الجزائر الجميع. فقد آمن بالثورة الكثير من الأفراد معلقين مصيرهم بها كما هو حال بطل الرواية الذي يقول عنه والده: «آه. اللاز المسكين. ابني ما سيكون مصيره؟ آمن بها بسرعة كالشعب، لأنها كانت منه.. فيضا منه.. وانضم إليها بنفس السرعة.. بل لقد احتضنها، كما احتضنها الشعب.. وها هو اليوم في خضمها، في ذروتها... ربما يصدم قبل أن يشبع منها، أو على الأقل يتمرس فيها».[34] لا يخفي "**زيدان**" هواجسه من المستقبل الذي ينتظر ابنه (الشعب) "**فزيدان**" سياسي مثقف ومتمرس يدرك خبايا السياسة جيدا حتى أنه فضل الموت على الانسلاخ من مبادئه الشيوعية. لذلك وجدناه لا يخفي خوفه على ابنه الذي تربى بعيدا عن حنانه. فانضمام "**اللاز**" للثورة كان فطريا وغريزيا بعيدا عن كل التوجهات الحزبية كغيره من الناس الذين التفوا حول الثورة واحتضنوها لأنها جزء منهم.

كما ينقل الروائي جانبا من التحدي الذي رفعه الجزائريون في وجه المحتل الغاشم من خلال رغبة سكان الريف في الالتحاق بالجبل والانضمام إلى صفوف المجاهدين، حيث يعبر البورجوازي الصغير "**قدور**" عن رغبته الجامحة في الجهاد «أريد أن ألتحق معكم، أريد أن أكون جنديا... بندقيتي، أقتل العسكر، وأقوم بعمليات، وأدافع عن نفسي، لقد انتهى كل أمر في القرية، ويجب أن لا أعود إليها».[35] أما "**اللاز**" وبينما كان

33. المصدر نفسه، ص: 88
34. المصدر نفسه، ص: 199، 200
35. المصدر نفسه، ص: 58

في السجن يحتسي الخمر، سرح في تفكير عميق مخاطبا ضميره الوطني الحي قائلا: «إيه إيه يا اللاز... ليتك الآن في الجبل تمسك رشاشا وتنبطح وراء صخرة كبيرة وتضغط بإصبعك لتلهب النهار، تحصد أعداءك الذين يحاولون عبثا التقدم من موقعك. تضغط وتضغط، حتى يحمر الرشاش، ولا تبالي... وإذا ما جاءت قذيفة مدفع أو طائرة تهوي عليك، تردد في ارتياح: نلت حقي، نلته كاملا، أفرغت شحن حقدي وحقد الأشقياء البؤساء».[36] إن الملفت للانتباه هو تمكن الثورة من لم شمل جميع الجزائريين وجمعها بين كل فئات المجتمع الجزائري الشريف والدنيء، الفقير والغني، المثقف والجاهل، هذه هي الثورة التي طالما حلم بها الجزائريون، "**فاللاز**" الذي جاء من العدم وأمضى حياته في المشاكل والتسكع وأذية الآخرين آمن بالثورة والتحق بها وصار جزءا منها، أما "**قدور**" الرجل الغني فقد اقتنع بها يوم أدرك أن المال ليس كل شيء، فانضم إليها حتى يحقق حلمه وحلم كل الجزائريين الانتقام من العدو وتحرير الأرض. لذلك يمكن القول إن الروائي الذي يستحضر التاريخ في مروياته إنما ينتقل بالسرد من مستوى الفرد إلى مستوى الجماعة قصد الوصول إلى الهوية السردية، فلكل أمة أو جماعة تاريخها وماضيها الذي نسجت حوله الكثير من الحكايات التي امتزج فيها الواقع بالخيال، مما يؤكد على العلاقة الجدلية بين تاريخ الأمة والحكايات المتخيلة الداعمة لها، وعن ذلك تنتج الهوية السردية الجماعية التي يصبح التاريخ فيها محض قصة مروية بينما تصير القصص التخيلية التي تنسجها الأمة تاريخا.[37]

5. الخيانة والتواطؤ مع المستعمِر:

لا تخلو رواية "**اللاز**" من الحديث عن الحركى هذه الفئة التي تنكرت لوطنها وفضلت التعاون مع المستعمر الفرنسي، تشاركه إبادة الأرض والدم. وقد ورد ذكر أسماء العديد من الحركى في رواية "**اللاز**" كـ"**بعطوش**" و"**السبتي**"، و"**الشامبيط**" وغيرهم... حيث كان لهؤلاء دور كبير في التواطؤ مع المستعمر الفرنسي بالكشف عن أسماء المجاهدين والمتعاطفين مع الثورة... فعندما تم الإمساك بـ"**اللاز**" وشرعوا في تعذيبه طمعا في أن يزودهم بأسماء الثوار؛ همّ بأن يتهم "**الشامبيط**" الخائن حتى يكسب بعض الوقت ويستمتع عندما يعذبه الفرنسيون، غير أنه تراجع في النهاية حتى لا

36. المصدر نفسه، ص: 78

37. عبد الله إبراهيم. موسوعة السرد العربي. ج8، قنديل للطباعة والنشر والتوزيع، دبي، ط1، 2016، ص: 09

يكتسب الخائن مكانة في المجتمع وهو ليس أهلا لها، حيث يُحدّث"**اللاز**" نفسه قائلا: «لكن هذا شرف يلحقه، يكسبه عطف السكان والثورة، ولربما أكون قد مت قبل أن أكشف الحقيقة. لا. لا. سيربح أكثر مما يخسر، لن أمكنه من هذا الشرف. لن أتهمه. هذه السياط، وهذه المسامير والآلات شريفة، لأنها لا تجلد ولا تؤلم وتلسع إلا المجاهدين، إلا الأحرار، ولن أدعها تلامس جسد خبيث خائن أبدا».[38] يشير تراجع "**اللاز**" عن اتهام الحركي إلى وعيه بما يجري حوله، فمن غير الممكن التسوية بين المجاهد والخائن ولو على سبيل المزاح أو الكذب، فلكل منهما منزلته بين أبناء وطنه. فعلى الرغم من الخدمات الجليلة التي يقدمها الحركى (الخونة) للجيش الفرنسي إلا أن ذلك لم يشفع لهم يوما بأن يلقوا الاحترام عند الفرنسيين، فالحركي بالنسبة للفرنسيين خائن ونذل لأنه تخلى عن وطنه، فبعد أن اكتشف الضابط موت السرجان "**ستيفان**" «... ظل جامدا، بينما تقدم الشامبيط، وهو ينزع في وقار سترته ليغطي بها الجثة... وفجأة زمجر الضابط: لا تمسسه. لا تمسسه أيها القذر. أبعد سترتك النتنة. كلكم فلاقة. كلكم أعداء. لا تمسسه... وسحب مسدسه وصوبه نحوه».[39] تبرز المعاملة السيئة التي لقيها "**الشامبيط**" مكانته الحقيقية في نظر الفرنسيين، فغدره وخيانته لوطنه لم تشفع له أمام الفرنسي الذي وبخه بطريقة مهينة باتهامه بجرم لم يرتكبه؛ مما دفعه إلى التساؤل عن مصير السنوات التي قضاها في خدمة العلم الفرنسي.

وبينما كان الضابط في طريقه إلى بيت "**قدور**" رفقة "**الشامبيط**" الذي كان يرشدهم إلى البيت والفرح يملأ عينيه نظر الضابط للحركي -الذي ظل يخدم الجيش الفرنسي لأكثر من عشرين سنة- وأخذ يحدث نفسه قائلا: «وهذا الشامبيط الهرم... ما أضخم بطنه، وما أغلظ شفتيه، وما أذل عينيه... ثم هذا الشاب القروي الذي تلفه البذلة العسكرية الفرنسية الشريفة... القذر، لو كان واعيا للبث مع إخوانه. الانتهازي القذر، لا يدرك تماما أنه ليس فرنسيا، ومع ذلك يأتي أعمالا لا يأتيها إلا فرنسي مخلص. الخائن القذر...»[40] يبدو أن الحركى ليسوا أقل حظا من الثوار، فهم منبوذون في نظر الفرنسيين رغم إخلاصهم للجيش الفرنسي، فقد أدرك الفرنسيون حقيقتهم ونذالتهم التي تجلت في تخليهم عن وطنهم.

38. الطاهر وطار. اللاز. ص: 76
39. المصدر نفسه، ص: 104
40. المصدر نفسه، ص: 105

أما "**بعطوش**" الذي قتل والدة "**اللاز**" "**مريانة**"، فقد تمكن من استعادة وطنيته، ولم تفارق صورة خالته "**حيزية**" -التي ضاجعها بأمر من الضابط ثم قتلها- مخيلته، فقد أفاق ضميره الوطني وقتل الضابط الذي دعاه لغرفته ليحتفل معه حتى يخفف عنه وطأة الخطيئة التي اقترفها... حيث انقض "**بعطوش**" على الضابط وهو يردد: «خالتي حيزية يا ربي سيدي. ثم هوى عليه بيدين مرتجفتين، وانهمك في خنق أنفاسه بكل ما أوتي من قوة وبعد فترة، استل خنجره وراح يطعنه أينما صادف... قابلته في الخزانة رشاشة الضابط وعدة قنابل، تناولها وأطفأ النور، وتسلل إلى الخارج».[41] فقد نجح "**بعطوش**" في تفجير كل تلك القنابل وقتل الكثير من الجنود الفرنسيين إلى أن التقى بمجموعة المسبلين التي جاءت للقرية لتنال منه بصفته حركيا، حيث «تتالت الانفجاريات، الواحد إثر الآخر، وارتفعت ألسنة النار إلى عنان السماء... كل شيء انتهى. مائتان وتسعون عسكريا. ثلاثون قوميا، كل العربات، كل الدبابات، كل مراكز الرقابة... بدأها بعطوش باغتيال القبطان، وإشعال البنزين، وأتممناها نحن. تأمل المسبل بعطوش، وأطال النظر إلى صدره وفكر... لو خرج هذا المساء من الثكنة لاستقرب رصاصة من مسدسي هناك... ثم تناوله بين أحضانه، وغمره بالقبل، والدموع تنهمر».[42] تجسد الأحداث المتسارعة في الرواية انتقال الأديب من الفضاء التاريخي إلى الفضاء التخيلي مما أتاح "**لبعطوش**" أن يغير مساره ويستعيد وطنيته يوم قرر التوبة عن خطيئة الخيانة ولولا ذلك لقتله المسبلون أو ذبحه "**قدور**". فأمام هذا التباين بين مواقف الشخصيات ندرك أن "**وطار**" يسعى من وراء رواية "**اللاز**" إلى مراجعة الأحداث التاريخية وإعادة النظر في حيثياتها بالاتكاء على السرد الذي يتيح له تجسيد فكرته في إطارها التاريخي، فالرواية بمقدورها صياغة العالم في شكل فني تتسارع فيها الأحداث وتمتزج فيه الحقيقة بالخيال.[43]

6. المرأة الجزائرية والثورة:

جسدت رواية "**اللاز**" مشاهد للمرأة الجزائرية المناضلة التي وقفت إلى جانب الرجل تدعم الثورة بالنفس والنفيس، في الجبال كمجاهدة وفي المدينة كفدائية... ومنه فقد نجحت المرأة الجزائرية في أن تثبت للعالم شدة صمودها وشجاعتها حتى إنها

41. المصدر نفسه، ص: 111

42. المصدر نفسه، ص: 215

43. ينظر: صالح ولعة. "البنيوية التكوينية و لوسيان غولدمان". مجاة التواصل، جامعة عنابة، العدد 08، جوان 2001، ص: 260

ساعدت المجاهدين وتسترت عنهم متحدية الجيش الفرنسي وأقل شيء كانت تفعله مداواة الجرحى وطهو الطعام للثوار...

يستحضر "**وطار**" مشهد زوجة القايد التي وشت به للثوار لأنها لم تحب يوما خيانته وديائته بل إنها طلبت من الثوار أخذها معهم لكي تنضم إلى صفوف الثورة التحريرية، فبعد شعور المجاهدين باليأس لأنهم لم يجدوا الحركي تقدمت زوجته الجميلة -التي تبلغ العشرين - من المجاهدين وسألتهم: «هل أنتم مجاهدون؟..

- ماذا تريدون من زوجي؟

- أن نذبحه.

- آه. إذن أنتم مجاهدون حقيقيون. لمَّ لم تقل من الأول إنكم تريدون ذبحه...؟

- أين هو؟

- فوق المدخنة تحت الرماد، غطاء حديدي لمطمورة، إنه هناك، دخل في المساء، قال إن دقات قلبه تضاعفت، وأنه يشتم رائحة كريهة... وقبل أن ننطلق إلى الرابع خطر لي أن أمر على الزوجة، وأسألها: - لماذا قامت بهذا الدور، وكشفت عن مخبأ زوجها... ترددت بعض الشيء. ثم أمسكتني من يدي... وشى بابن عمي، وبخالي... ثم أجهشت وغمغمت: يتركني مع سارجان الحركة كلما جاء، ويخرج. في الصباح... يسألني هل سأنجب له ولدا أم بنتا... إنه نذل. ألحت أن نصطحبها معنا، ولما طمأنتها بالعودة، أخرجت من ثقب بالجدار رزمة، وأعطتنا نصيبا من المال. إعانة لله. في سبيل الله لإخوتي. ربي ينصركم... تركتها جذلى مرتاحة الضمير، وانطلقنا للبقية».[44] ينم الموقف البطولي الذي قامت به زوجة القايد عن عدم رضاها بما يقوم به زوجها، فقد أثبت أنها أشد وفاءا لوطنها مقارنة مع زوجها الذي قرر بيع وطنه وشرفه معا، فكان جزاءه الذبح. ثم إن مثل هذه الروايات توضح الدور الإيجابي للمرأة الجزائرية إبان الثورة.

لا يكتفي "**وطار**" بإبراز الدور الإيجابي للمرأة الجزائرية وإنما يرصد أيضا دورها السلبي اتجاه القضية الجزائرية، فإن ساعدت زوجة الحركي المجاهدين في القضاء عليه وطلبت منهم الالتحاق بصفوف المجاهدين فإن "**حيزية**" زوجة الشيخ "**الربيعي**" لم تبد أية مقاومة لابن أختها "**بعطوش**" الذي قام بمعاشرتها بأمر من القبطان بل وأنها استسلمت كأنها استساغت الفكرة ضاربة بذلك كل الأعراف والمحظورات عرض

44. الطاهر وطار. اللاز. ص: 123، 124، 125

الحائط، فبعد تفتيش الفرنسيين للبيت لم يجدوا "**قدور**" و**اللاز**، فأمر الضابط الشيخ "**الربيعي**" وزوجته بالتعري لم يتوقف الضابط عند هذا الحد؛ وإنما طلب من "**بعطوش**" أن يضاجع خالته "**حيزية**" قائلا: «سارجان بعطوش أريد أن تضع جنينا في بطن هذه المرأة. هنا أمامي. هيا أسرع. انتفض بعطوش والربيعي عمه، والشامبيط... فالتفت إليه بعطوش، وراح يحدق فيه ببلاهة، وحيرة...»[45] يصور الأمر الذي أصدره الضابط الفرنسي نذالة المستعمر الفرنسي الذي لم يحترم يوما مقدسات وخصوصية الجزائريين ،ثم إن تنفيذ "**بعطوش**" لأوامر ضابطه المخزية يدل على قمة الخزي واللعنة التي ألمت بالحركى، فهم مجبرون على تنفيذ أوامر أسيادهم ولو كانت على حساب شرفهم ودينهم ومبادئهم.

لم يستوعب "**بعطوش**" الخطيئة التي اقترفها، فدخل في حالة هيستيرية، غير أنه أخذ يعزي نفسه باستجابة خالته لخطيئته قائلا: «خالتي حيزية. اللعنة على خالتي... لماذا أشعر بالخجل وبالجنون؟ ما كنت أتصورها في مثل تلك الروعة... كانت في الأول باردة كالميتة، ثم فجأة، غمرها دفئ عجيب. عليها اللعنة أنّت وطوقتني وتجاوبت معي بشكل فضيع».[46] إن عدم مقاومة "**حيزية**" لابن أختها وتجاوبها معه يجعل منها امرأةً سلبية لا فائدة منها، فهي ليست مثل بقية النساء اللواتي كن يقاومن الاستعمار الفرنسي بشتى الطرق. فكن يحافظن على شرفهن بتلطيخ أجسادهن بفضلات الحيوانات حتى لا يتمكن الجنود الفرنسيون من اغتصابهن...

أخيرا يمكن القول إن رواية "**اللاز**" "**للطاهروطار**" قد اعتمدت على التاريخ كمادة لبنائها السردي، بينما سمحت الفضاءات الرحبة للسرد بتخييل العالم وتفسيره بالإضافة إلى نقد التاريخ والنبش عن المسكوت عنه بإعادة الاعتبار للمهمش والمغيب في مصادر التاريخ المتباينة في قالب سردي درامي. وهنا تجدر الإشارة إلى أن حضور التاريخ في الرواية لا يجعل منها تاريخا ومرجعا توثيقيا؛ ذلك أن الرواية تؤدي وظيفية جمالية إنشائية. ويمكن تفسير حضور التاريخ في الرواية بوعي الروائي بضرورة فهم الحاضر بالعودة إلى جذوره الممتدة في الماضي. وحرصه على إضفاء الصبغة الجمالية على أحداث التاريخ المتشابكة بالاتكاء على جمالية اللغة ورمزيتها.

45. المصدر نفسه، ص: 111

46. المصدر نفسه، ص: 152

جسدت رواية **"اللاز"** إلى حد بعيد مختلف ملامح التجربة الكولونيالية ومظاهرها، حيث كشفت عن مكانة الثورة في نفوس الجزائريين باعتبارها المخرج الوحيد للجزائريين من مأزق الاستعمار، والحديث عن الثورة لا يخلو من المشاهد التي توحي بالتمسك بالوطن والاعتزاز بالانتماء إليه... فضلا عن الإشارة إلى البطولات والتضحيات التي قدمها الجزائريون في سبيل استرجاع حريتهم المسلوبة. كما استوعبت الرواية واقع الجزائريين في تلك الفترة من تفاصيل للحياة اليومية في مستوياتها الاجتماعية، والثقافية والأيديولوجية... وقد كشفت الرواية عن حجم الدمار الاقتصادي والثقافي الذي ألم بالجزائريين بسبب الاستعمار الفرنسي. كما وقف "**وطار**" عند همجية المستعمر الفرنسي ونذالته وذلك من خلال إشارة الرواية إلى جملة من الجرائم التي ارتكبها المستعمر الفرنسي في حق الجزائريين، والتي تهدف في مجملها إلى قمع الجزائريين وثنيهم عن الالتحاق بالثورة التحريرية، بالإضافة إلى حرص الرواية على إبراز الدور الفعال لسكان الأرياف في تبني الثورة على الرغم من تباين مواقفهم ومشاربهم الثقافية والأيديولوجية.